العرب
الإثنين 2021/05/03
السنة 43 العدد 12049

عن الذين كانوا مع عباس في لحظة الشؤم تلك

علي الصراف
كاتب عراقي

جزء من طبيعة الصحافي هو أن يعرف. ولكني ارتأيت الاستغناء عنه من أجل أن أتوجه بالسؤال الصريح التالي: من هم الذين اجتمع بهم الرئيس محمود عباس لكي يبلغهم بقراره إلغاء الانتخابات الفلسطينية؟ ولماذا لم يبلغوه رفضهم لما كان يزمع الإقدام عليه؟ ولماذا علت أصوات الرفض من بعد ذلك؟ وهل ذهبوا إلى الاجتماع معه لكي يتلقوا الأوامر أم لتبادل الرأي؟ وإذا كانوا أفقر شجاعة من أن يقولوا كلمة حق في وجه سلطانهم الجائر، فبأي حق يجوز لهم أن يزعموا أنهم قادة شعب؟ ما الذي جعلهم يسمحون له بالإدلاء ببيان الإلغاء من دون أن يقوم أحدهم ليرمي القفاز (أو أي شيء على الطاولة) في وجهه؟ لماذا لم يخرجوا من قاعة الاجتماع ليتركوه وحيدا يدلي بما يشاء فلا يتحملون المسؤولية عن أنهم كانوا معه في لحظة الشؤم تلك؟

إنه لشيء محير بالفعل. مع من اتخذ عباس ذلك القرار؟ من أيّده؟ ومن قال ماذا في ذلك اللقاء العجيب؟

لقد اختار الرئيس عباس أن يرمي تطلعات شعبه بممارسة حقه في الانتخاب عرض الحائط لمجرد أنه لم يكن يريد أن يلغي الانتخابات، بل أن يلغي نتائجها متذرعا بأنه "لا انتخابات من دون القدس". بينما الحقيقة هي أن الناخبين المقدسيين كانوا سوف يشاركون في الانتخابات في جميع الأحوال. أربعة أخماسهم يصوتون في مراكز لا سيطرة لإسرائيل عليها، بينما كان يمكن تدبر الوسيلة بعد الأخرى لكي يشارك الخمس الباقي في أعمال التصويت. هذا ما أكدته لجنة الانتخابات المركزية على الأقل. فإذا كان الرئيس عباس والذين أحاطوا به لا يُصغون إلى ما تقوله هذه اللجنة، فلماذا هي موجودة أصلا؟

ولكن، هل المبرر الذي يتبناه الرئيس عباس جدير بالاعتبار؟ هل يوفر عدم تصويت ذلك الجزء من مواطني القدس نوعا من "اعتراف" غير مقصود بسيطرة إسرائيل على القدس الشرقية؟

هذا هراء محض لسببين على الأقل:

الأول هو أن المقدسيين في أرضهم، لا يتزحزحون عن انتمائهم لفلسطين، ولا تتزحزح مقدساتهم وهم يحرسونها بالغالي والنفيس، ويقدمون على ذلك الدليل تلو الآخر كل يوم.

والثاني هو أن مقررات الشرعية الدولية كافية الوضوح. ولا داعي للإشارة إلى أن اتفاقات أوسلو هي التي جعلت الواضح غامضا.

المسألة في الانتخابات لا تقتصر على الحاجة إلى تجديد الشرعية الفلسطينية، وتجديد مؤسساتها، وبعث الحياة في ما تحول فيها إلى رماد، ولكنها مسألة أن يثبت الفلسطينيون أنهم شعب حي، وقادر على أن يمارس الديمقراطية كباقي خلق الله، وأنه جدير بحقوقه، وأنه قادر على بناء دولة جديرة بالاحترام.

هذا هو ما يغيب عندما يتم إلغاء الانتخابات. وهو يغيب أكثر عندما يصبح نوعا من فيتو تمارسه إسرائيل على حقهم في أن يتصرفوا كشعب.

قيادة زريبة شيء، وقيادة دولة شيء آخر. وحتى إذا كان من الملائم للرئيس عباس أن يقود زريبة على مقاسه، فليس من الملائم على الإطلاق السماح له بذلك، أو جعله يظن أنه يستطيع التمادي في إهانة شعبه.

لقد جرب طغاة كثيرون هذا السبيل، إلا أنهم انتهوا النهاية التي تليق بهم. ولربما يشعر الرئيس عباس أنه محمي بما هو مقدس لديه (التنسيق الأمني مع إسرائيل) فيجيز له أن يكون وقح العبارة، متغطرسا، وصلف السلوك. ولكن قيل لفرعون "ما الذي فرعنك؟"، قال "الخرفان من حولي".

الرئيس عباس لم يُلغ الانتخابات إلا ليُلغي النتائج. أدرك أنه سوف يُهزم فآثر الهرب إلى الأمام بذريعة أنه "لا انتخابات من دون القدس"، بينما كان يقصد القول "لا انتخابات ولا قدس". وقدم البرهان على ذلك عندما جعل الإلغاء من دون موعد بديل. لأنه لو كان قد حدد موعدا، لجاز القول إنه يريد إبقاء الضغط على إسرائيل. ولكنه لم يفعل، لأنه أراد إلغاء الانتخابات، وإلغاء الضغط على إسرائيل!

الانطباع الذي تركته سلطة الرئيس عباس، هو أنها نفذت انقلابا استباقيا لأنها كانت تعرف أن وجود 36 قائمة سوف لن يوفر لقائمة فتح الرسمية الفرصة لاحتلال مقاعد كافية في المجلس التشريعي المقبل.

ولكن الانقلاب على الانتخابات قبل إجرائها لا يُبقي من شرعية الرئيس عباس شيئا إلا ما لا نفع فيه. أما محاولة تجميل التأجيل بالدعوة إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية، فإنها لم تكن لتقنع أحدا، طالما أنها ستبدو حكومة تواطؤ أكثر منها حكومة وحدة وطنية بالفعل. وهي على أي حال، بلا برنامج متفق عليه أصلا. فلماذا لم يقل الذين اجتمعوا به ذلك في وجهه؟ أفهل كانوا خائفين؟ من ماذا وهم يتحدثون عبر الفيديو؟

حُسن النيات كان يذهب إلى القول إن الرئيس عباس أراد أن يخرج من حفرة الانقسام والفشل والشلل بقبول الدعوة إلى الانتخابات، إلا أنه على وجه الحقيقة كان يضحك على الجميع.

اجتماعات رايح واجتماعات جاي. تفاهمات من هنا، واتفاقات من هناك، بينما كان يضحك في عبه على الجميع جاعلا من شعبه مضحكة، بكل ما أعد من قوائم انتخابية وبكل ما استعد له من تطلعات.

لقد كان يعرف مسبقا وسلفا أن إسرائيل لن تقدم أي تسهيلات لإجراء الانتخابات في القدس. وكان من الطبيعي لزعيم مخلص أن يتدبر البدائل، ويجعلها جزءا من تلك التفاهمات. إلا أنه، كأي متآمر خبيث، قرر أن يترك الأمور تجري في مسالك الخديعة قبل أن يثقب القارب وهو في وسط البحر.

لقد نزع الرئيس عباس شرعيته بنفسه حيال 93 في المئة من الناخبين الذين كانوا يريدون أن يكون لهم صوت، فحرمهم منه.

ولقد أثبت بنفسه أنه متآمر شرير، مستعد لأن يفعل أي شيء لإهانة شعبه، بينما هو يتخذ من أقدس حقوقه ستار دخان للهرب من استحقاق سياسي وأخلاقي ظل الفلسطينيون ينتظرونه لـ15 عاما.

ولكنه محمي! حتى ولو قاد قضية شعبه إلى الجحيم.

المشكلة لا تكمن فيه هو على أي حال. المشكلة في الذين سمحوا له بأن يتفرعن عليهم وعلى الناس أجمعين.

لو بحثت إسرائيل سبعة أراضين الأرض عن مخاز تخزي بها عشرة ملايين فلسطيني في أربع جهات الأرض، فلن تجد أفضل منه.

منطق اللامنطق الروسي... في سوريا

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليس هناك ما يتحرّك في سوريا حيث الجمود سيّد الموقف. كلّ احتلال من الاحتلالات الخمسة في مكانه. لا يزال الأميركي في شمال شرق سوريا متحكّما بمعظم النفط والغاز والمياه والزراعة. ولا يزال الروسي يبحث عمّن يشتري منه ورقة النظام السوري. ولا يزال التركي يعزز مواقعه في الشمال السوري وهمّه الأوّل الأكراد الذين يحميهم الأميركي. ولا يزال الإيراني يسعى إلى التمدّد على الرغم من الضربات الإسرائيلية... ولا يزال الإسرائيلي يتفرّج على المشهد الدائر في مكان قريب منه. يتفرّج ويتدخّل متى يحلو له الأمر. يفعل ذلك من الجولان المحتلّ منذ العام 1967، أي منذ 54 عاما. نعم، 54 عاما أي ما يزيد على نصف قرن!

أسوأ ما في الأمر إصرار بشّار الأسد على إجراء انتخابات رئاسيّة في السادس والعشرين من أيّار – مايو الجاري. مشكلة بشّار أنّه يعيش في عالم آخر لا علاقة له من قريب أو بعيد بسوريا. كان يمكن الوقوف مع الانتخابات لو كانت تساهم في حلّ أو تسوية تعيد سوريا إلى السوريين وتخرج الاحتلالات. لكن الواقع أنّ الانتخابات التي تعني بقاء بشّار في دمشق، ليست سوى خطوة أخرى في طريق استمرار الجمود القائم وزيادة عذابات الشعب السوري. فضلا عن تكريس وجود الاحتلالات.

يمكن وضع الاحتلالات الخمسة جانبا والتطرق إلى الجانب الإنساني للمأساة السورية. ثمّة أرقام لمنظمات دولية عدّة مهتمّة بالوضع السوري وبوضع السوريين تحديدا. تقول هذه الأرقام إن 90 في المئة من السوريين يعانون من الفقر وهناك نسبة 70 في المئة منهم لا يستطيعون الحصول على ما يكفي من المواد الغذائية.

حسنا، أجريت انتخابات رئاسية في السادس والعشرين من الشهر الجاري. ماذا بعد ذلك؟ هل تعني هذه الانتخابات أنّه صار للنظام شرعيّة ما؟ الجواب، بكلّ بساطة، أن ليس هناك ما يمكن أن يوفّر للنظام السوري القائم منذ العام 1970، وهو في الواقع امتداد لانقلاب عسكري في الثامن من آذار – مارس 1963، أيّ شرعيّة من أيّ نوع. هناك ضباط بعثيون، في معظمهم، اغتصبوا السلطة في 1963 وهناك ضباط علويّون أخذوا السلطة إلى مكان آخر في 23 شباط – فبراير 1966 وصولا إلى تفرّد حافظ الأسد بحكم سوريا في 16 تشرين الثاني – نوفمبر 1970، وصولا إلى انتخابه رئيسا للجمهورية في شباط – فبراير 1971 بصفة كونه أوّل علوي يصل إلى هذا الموقع الذي تحوّل إلى ملك للعائلة على غرار ما عليه الحال في كوريا الشمالية.

من أطرف ما نشهده حاليا وجود سياسيين لبنانيين من نوع جبران باسيل، صهر رئيس الجمهورية ميشال عون، يراهنون على بشّار الأسد وعلى أنّه سيلعب دورا في إعادة النازحين السوريين الموجودين في لبنان إلى سوريا. لو كان بشّار الأسد مستعدًا للقيام بأي مبادرة حسن نيّة تجاه لبنان، لكان أفرج عن اللبنانيين المسجونين في سوريا منذ سنوات طويلة. بين هؤلاء عسكريون لبنانيون احتجزوا بعد سيطرة الجيش السوري على قصر بعبدا في أثناء وجود ميشال عون فيه في الثالث عشر من تشرين الأوّل – أكتوبر 1990. وقتذاك لجأ ميشال عون إلى السفارة الفرنسيّة بينما كان جنود لبنانيون يقاتلون لوقف الهجوم السوري على قصر الرئاسة.

ليس كلام جبران باسيل عن دعم بشّار الأسد سوى مزحة سمجة، خصوصا في ظلّ تجاهله لمصير اللبنانيين الموجودين في السجون السوريّة. لكنّ ما يثير القلق هو الموقف الروسي الذي لا يبدو مفهوما في أيّ شكل. ما الذي تستطيع روسيا عمله بالورقة السورية باستثناء أنّه صار لها وجود دائم وثابت على شاطئ المتوسّط، أي في المياه الدافئة التي سعت عبر التاريخ في إيجاد موطئ قدم فيها؟ كل ما تفعله روسيا، في غياب موقف واضح من نظام بشّار الأسد، هو الدوران في حلقة مقفلة ولا شيء آخر غير ذلك. لن تجد روسيا من يقايض على هذه الورقة، خصوصا أن الولايات المتحدة حصلت على ما تريد الحصول عليه في سوريا ولا تجد ضرورة في أيّ مساومة مع الجانب الروسي.

استطاعت روسيا إبقاء بشّار الأسد في دمشق وذلك عندما تدخّلت عسكريا ابتداء من أيلول – سبتمبر 2015. ما الفائدة من ذلك؟ الفائدة كانت لإيران التي يهمّها بقاء النظام السوري من منطلق أنّه نظام أقلّوي تعرف تماما أنّه لا يستطيع إلّا أن يكون إحدى أدواتها في المنطقة. اختبرت "الجمهوريّة الإسلاميّة" النظام السوري منذ أيّام حافظ الأسد. وقف إلى جانبها في الحرب مع العراق وهي حرب استمرّت ثماني سنوات. سهّل حافظ الأسد دخول "الحرس الثوري" إلى لبنان في العام 1982 بحجة المشاركة في مواجهة الإسرائيليين. بعد ذلك، استطاعت إيران وضع يدها على لبنان وتقليص حجم الوجود السوري فيه، بل إنهاء هذا الوجود، لمصلحتها... فيما روسيا تتفرّج.

> الوقوف مع الانتخابات ممكن لو كانت تساهم في تسوية تعيد سوريا إلى السوريين لكن الانتخابات التي تعني بقاء بشّار ليست سوى خطوة أخرى في طريق استمرار الجمود القائم وزيادة عذابات الشعب السوري

ستبقى روسيا تتفرّج في سوريا في انتظار من يشتري منها ورقة، لم تعد ورقة، وذلك بالتواطؤ مع إسرائيل أحيانا ومع إيران في أحيان أخرى وفي ظلّ علاقة معقّدة مع تركيا التي كرّست وجودها في الشمال السوري.

ليست الانتخابات الرئاسيّة السوريّة سوى خطوة أخرى على طريق كشف أنّ الأزمة التي يمرّ فيها هذا البلد ما زالت طويلة. إذا كان حافظ الأسد تواطأ مع إيران في حربها مع العراق، لكنّ ما لا بدّ من الاعتراف به أنّه حافظ دائما على هامش للتحرّك في الفضاء العربي. استخدم العراق وإيران ليقول إنّه قادر على أن يكون عنصر توازن في المنطقة. انطلى ذلك على بعض العرب، لكنّه لم ينطل على كثيرين.

يكمن الفارق في أن بشّار الأسد لم يتقن اللعبة التي أتقنها والده ووضع كلّ بيضه في السلّة الإيرانيّة. من المستغرب تجاهل روسيا لهذا الواقع الذي يعني بين ما يعنيه أنّها وضعت نفسها في تصرّف إيران في بلد اسمه سوريا كلّ ما يمكن قوله عنه أنّه يعيش في ظلّ نظام لا يمكن أن تكون لديه أيّ شرعيّة في يوم من الأيّام. إنّه بالفعل منطق اللامنطق الذي يختزل السياسة الروسيّة في سوريا... إلّا إذا كان المنطق يقول إن الرهان على نجاح إيران في سوريا له ما يبرّره في الكرملين!